حركة التوحيد والإصلاح

## محاضرات سبيل الفلاح

لموسم 1436هـ / 2015 م

# أعلام المغرب المعاصرين

## الجزء الأول

بمشاركة:

الدكتور أحمد الريسوني — الأستاذ المقرئ أبو زيد الإدريسي

الشيخ حماد القباج — الأستاذ نور الدين قربال

الدكتور سعد الدين العثماني

إعداد وتقديم:

الدكتور مولاي عمر بن حماد

حركة التوحيد والإصلاح

## محاضرات سبيل الفلاح

لموسم 1436هـ / 2015 م

# أعلام المغرب المعاصرين

## الجزء الأول

بمشاركة:

الدكتور سعد الدين العثماني

الشيخ حماد القباج

الدكتور أحمد الريسوني

الأستاذ المقرئ أبو زيد الإدريسي

الأستاذ نور الدين قربال

إعداد وتقديم:

الدكتور مولاي عمر بن حماد

بسم الله الرحمن الرحيم

# محاضرات سبيل الفلاح

الطبعة الأولى: فبراير 2016.
المطبعة: طوب بريس – الرباط
رقم الايداع القانوني: 2016MO0667
ردمك : 978-9954-37-190-9

# أبو شعيب الدكالي:
# الفكر والمسار

الدكتور سعد الدين العثماني

حركة التوحيد والإصلاح
ATTAWHID WAL'ISLAH

تنظم

# محاضرات سبيل الفلاح
## في سنتها الخامسة

# للتعريف بأعلام المغرب المعاصرين

المحاضرة الخامسة في موضوع:

## أبو شعيب الدكالي:
## الفكر والمسار

من تأطير:
الدكتور سعد الدين العثماني

يوم الجمعة 26 رجب 1436 موافق 15 ماي 2015 على الساعة (18:00)
بقاعة عبد الله بها بالمقر المركزي للحركة: 22، زنقة كلكوتة، حي المحيط.

# أبو شعيب الدكالي: الفكر والمسار

الدكتور سعد الدين العثماني

- **أولا – بين يدي المحاضرة**

الملاحظة الأولى هذه المحاضرة محاولة للوفاء ببعض الحق لهؤلاء العلماء الأعلام، فهم الذين مهدوا الطريق، طريق بناء مغرب اليوم. والمسؤولية الآن في أعناقنا نحن وأعناق من سيتلو ومن سيتبع. لكن طودا شامخا مثل الشيخ أبي شعيب الدكالي لا يمكن أن يوفيه حقه في محاضرة واحدة. هذا العالم يعرف الناس اسمه كثيرا، لأن مؤسسات تعليمية وشوارع وغيرها تحمل اسمه عرفانا بما أسداه لوطنه. لكن قد يخفى على الكثيرين أثره وجهاده وجهده، مما كان له تأثير عميق في مسار الأمور ومجراها في بلدنا المغرب.

الملاحظة الثانية التي أريد أن أبديها بين يدي الموضوع وهو كما أشار إلى ذلك أخي مولاي عمر بنحماد حفظه الله، إنه من السنة الحميدة فعلا أن تبدأ هذه الدروس سبيل الفلاح في الالتفات إلى الشخصيات المغربية العلمية الدعوية الإصلاحية، ذات التأثير بل هو واجب على دعاة اليوم، وقد كنت أدعو باستمرار منذ أكثر من عقد ونصف من الزمان إلى تغيير كثير من التقاليد التي ألفها الشباب المسلم المتدين من الرجوع دائما إلى علماء المشرق وهم أهل فضل أيضا وهم أساتذتنا كذلك، ولا حرج في الرجوع إليهم وإلى كتاباتهم، لكن دون إغفال التربة المغربية التي تعج بالعلماء والمصلحين وبكتاباتهم وآثارهم. لكن ولأسباب متعددة مرتبطة بالتاريخ وبالجغرافيا وبطبيعة البشر أنفسهم، يظل أهل المغرب أكثر زهدا في الظهور وأحيانا حتى في الكتابة. فنرى أبا شعيب الدكالي لم يخلف تراثا

فكريا مكتوبا، ولم يترك آثارا مكتوبة. وأيا كانت عوامل ذلك فإن واجبنا نحن أن نتجاوزها ونتحداها. وقد قام أبو شعيب الدكالي نفسه برفع هذا التحدي في بعض المستويات. لذلك من واجبنا أن نلتفت إلى هؤلاء العلماء الأعلام، وبمراجعة تاريخ المغرب الحديث، نجد أن كم الشخصيات المؤثرة علما وعملا وصلاحا وجهادا ووطنية ودعوة وتعليما في تاريخ المغرب المعاصر كبير جدا، لكن كثيرا من المغاربة اليوم يجهلونهم. ربما التعليم لم يقم بدوره في التعريف، والإعلام لم يقم بدوره في التعريف، فعدد تلامذة الشيخ أبي شعيب الدكالي وحدهم قد يستغرق مجلدات، إذ استطاع تخريج كبار العلماء والمصلحين والدعاة الذين أثروا في حاضر المغرب.

إن هذا الهم يجب أن يستمر ويجب أن يحمله ليس فقط عموم الدعاة وعموم الشباب المتدين وأصحاب الغيرة، ولكن يجب أن يحمله بالأساس الباحثون الشباب الذين يستقبلون مسيرتهم العلمية وخصوصا في شعب التاريخ والدراسات الإسلامية أو الشريعة، إذا انكبوا على هذه الشخصيات، وتفرغ كل واحد لواحدة منها لبضع سنوات، فأخرج كنوزها وعرف الناس بآثارها، في جهود جماعية متتالية، فإن ذلك قد يفضي إلى تجلية صفحات معمورة من تاريخ المغرب المعاصر. وأذكر هنا بالمناسبة الوطني العلامة محمد المختار السوسي رحمة الله عليه، الذي هو مفخرة من مفاخر المغرب، والذي نذر 25 سنة من عمره لإخراج كنوز منطقة واحدة من مناطق المغرب، ألا وهي سوس. فألف العديد من المؤلفات أحدها فقط، وهو المعسول، طبع في عهده وفي حياته في 20 جزءا، يضم حوالي 8 آلاف صفحة، وفيه حوالي 4000 شخصية، من العلماء والصلحاء والرؤساء وغيرهم من الذين تعج بهم منطقة سوس. وعنده عشرات العناوين الأخرى في التاريخ لا شك أننا سنجد فيها شخصيات علمية ودعوية ومن الصالحين. إننا نأمل أن يسلك الباحثون هذا

المهيع الطيب، وأن يقوموا بدراسة تاريخ الشخصيات الوطنية، وأن يعملوا على أن يوفوها حقها، مما سيوفر بلا شك، ثروة معرفية مهمة للمكتبة المغربية. هذا الكلام الذي نسوقه إنما هو في الحقيقة مصداق الحديث الصحيح لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه أبوداود في السنن والحاكم في المستدرك، وفيه: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها"، فالحديث يؤشر على أن عملية الإصلاح عملية مستمرة لا تتوقف. و"من" في الحديث قد يكون جيلا كاملا، وقد يكون مدرسة في الحديث أو الأصول، أو في الفكر والتنظير، أو مدرسة إصلاحية في السياسة والحكم، أو غيرها، المهم أن جهود الإصلاح والتجديد في الأمة مستمرة لا تتوقف. ولذلك عندما نبحث عن المصلحين ونجليهم فنحن نجلي مصداق هذا الحديث النبوي الشريف. وأيضا من حق كل إنسان مسلم أن يتوق إلى أن يناله جزء من هذا الحديث، أن يكون جزءا من قدر الله لكي يسهم في أن يجد هذا الحديث مصداقه في الواقع، أن يكون يدا من أيادي الله سبحانه وتعالى في الإسهام في تجديد الدين، هذا التجديد المستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لن أغرق في الجزئيات وأنا أتكلم عن الشيخ أبي شعيب الدكالي. ورحم الله الدكتور محمد رياض الذي ضمن مجلدين كبيرين، سيرته وأخباره وأساتذته وتلاميذه. وجمع فيهما ما تفرق في مؤلفات أخرى وفي جرائد وما نشر فيه من المراثي كما أورد بعض خطبه. كل هذا جمعه في كتابه الذي سماه: "شيخ الإسلام أبو شعيب الدكالي الصديقي وجهوده في العلم والإصلاح والوطنية". ويمكن للباحثين أن ينطلقوا منه للتحليل والدراسة والمقارنة بمعطيات أخرى.

- **ثانيا – ولادة ونشأة الشيخ أبو شعيب الدكالي:**

**1ـ ولادته ونشأته:**

ولد أبو شعيب بن عبد الرحمن بن عبد العزيز الدكالي الصديقي عام 1295ه الموافق لسنة 1878م. وأول ملاحظة يمكن أن يسجلها المتابع لمساره هي القصر النسبي لعمره الذي لم يتجاوز 59 سنة ميلادية، وهو عمر محدود بالمقارنة مع ما قام به من عمل وما خلفه من آثار، وما خرج من تلامذة صار أغلبهم أعلاما شكلوا تاريخ المغرب المعاصر. وأذكر في هذا السياق أن كثيرا من العلماء عاشوا أقل من ذلك وكانوا لهم تأثير كبير، وخلفوا تراثا هاما وضخما، بقي نبراسا في مسيرة العلوم. فنجد الإمام النووي لم يعش سوى 45 سنة، والإمام الشافعي هو الآخر عاش فقط 54 سنة، ومحمد عبده عاش تقريبا 55 سنة. فالإنسان لا يحتاج إلى أن يعيش عمرا طويلا ليبارك الله في عمره وليغزر إنتاجه. فهذا الإمام النووي ألف مجلدات يحار الإنسان كيف ألفها وكيف كتبها في عمر قصير مثل عمره. لقد كان هؤلاء الأعلام مثالا حيا في استثمار الوقت استثمارا جيدا، كان ابن الجوزي رحمة الله عليه، وهو من كبار العلماء الذين كتبوا في مختلف الفنون الشرعية، إذا زاره الضيوف كان يشغلهم، بتقطيع الأوراق أو تجهيز الصمغ والأقلام حتى لا يشغلوه، فقد كانوا يعدون الثواني والدقائق ويملؤونها بالعمل الصالح، علما وإنتاجا وفائدة للبلاد والعباد. وأبو شعيب الدكالي الذي نتحدث عنه اليوم كان مثالا في ذلك أيضا. كان مثلا يحافظ على دروسه العلمية على الأقل بين المغرب والعشاء يوميا حتى وهو مشغول بهموم المسؤولية والوزارة. وحتى عندما يكون مسافرا، وما أكثر أسفاره في زمن المسؤولية، كان يحرص على إلقاء درسه العلمي بالمسجد الجامع أو الكبير بالمدينة التي يزورها. وبعد خروجه من الوزارة أصبح يلقي في الغالب ثلاثة

دروس يوميا. وهكذا كان أبو شعيب يستثمر وقته المحدود بأقصى ما يستطيع، وكذلك يجب أن يتصرف المؤمن.

يخدر أبو شعيب الدكالي من منطقة دكالة، ومن الطرفة في هذا الباب أن الأستاذ المقرئ الإدريسي أبو زيد وهو دكالي طلب منه أن يؤطر محاضرة ضمن سلسلة سبيل الفلاح حول محمد المختار السوسي، وطلب مني وأنا السوسي أن أؤطر محاضرة حول أبي شعيب الدكالي.

**2 ـ دراسته:**

بدأ الشيخ أبو شعيب الدكالي حفظ القرآن الكريم بالقراءات السبعة، وحفظ عددا من المتون الشرعية واللغوية، مثل متن الشاطبية في القراءات، ومختصر خليل، وألفية ابن مالك، وتحفة ابن عاصم، وتوضيح ابن هشام، والمرشد المعين، ورسالة ابن أبي زيد، والمعلقات السبعة، ونصيب وافر من النحو والصرف وغيرهما. وعمره آنذاك 12 سنة. وكان العلماء آنذاك يركزون على علوم الآلة لأن بها يفهمون الحديث والدين أكثر، وهي اللغة والنحو والبلاغة وغيرها. وظهرت على أبي شعيب منذ صغره علامات الحفظ والنجابة والذكاء. وكان السلطان الحسن الأول قد قرر في هذه الفترة تنظيم مباراة اختبار في حفظ مختصر خليل فذهب أبو شعيب الدكالي سنة 1308 هـ، وعمره آنذاك 12 سنة، ليحضر مجلسه ويشارك في المباراة. فلما دخل استصغروه كثيرا، فقال له علي بن حمو المسفيوي وزير العدل، وهو الذي كان مكلفا بالامتحان: هل تحفظ القران؟ فقال له: أحفظه بالقراءات السبعة، فأحضروا قارئا يحفظ بالقراءات السبعة، فقالوا له اقرأ، فاختار أن يقرأ في الرحمن، فقرأها بالقراءات السبعة. فلما رأوا نجابته أدخلوه على السلطان الحسن الأول، فقال له ممتحنا له: أعرب لي الرمان حلو حامض، وهذه في النحو في

شروح ألفية ابن مالك من شواهد تعدد الخبر للمبتدأ الواحد، فأعربها له، فقال له: أنت فقيه ولست بنحوي، فقال أبو شعيب: أنا أعلم بالنحو مني بالفقه، ولكني بمنزلة قول الشاعر:

**يداك يد للورى خيرها * وأخرى لأعدائها غائرة**

وهذا الشعر يأتي به شراح ألفية ابن مالك مثالا آخر لتعدد الخبر لمبتدأ واحد. لكن بعض الحاضرين تعنتوا، فقالوا له أوضح مقالك للسلطان أكثر: "زد إيضاحا لسيدنا"، وكأنه يحاول أن يورطه، فقال له الشيخ أبو شعيب الدكالي وهو يقصد الذي تدخل: "هو بمنزلة: والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات"، فضحك السلطان كثيرا لأن هذا مثال آخر يوردونه للمعنى ذاته: تعدد الخبر لمبتدأ واحد. وكان السلطان عالما بتلك الأمثلة. فأمر له – على غير العادة - بصلتين وكسوتين وكتب له في توقيعه: "يضاعف لأبي شعيب لصغر سنه وكبر فنه"، وبقيت عنده إلى آخر حياته. ومنذ ذلك الحين برزت شخصية أبي شعيب الدكالي التي تتمتع بالذكاء وقوة الذاكرة، وبدأ يلوح لأهله المستقبل المدخر له.

**3 – مساره العلمي**

**رحلته لمصر:**

سافر أبو شعيب الدكالي إلى مدينة فاس طلبا للعلم، ثم توجه إلى منطقة الريف، حيث بقي سنتين يزاول دروس القراءات والحديث والفقه. لكنه لم يقتنع بذلك فقرر السفر إلى مصر وطلب العلم في الأزهر. وهو ما تم له سنة 1314 هـ الموافق ل 1896م. فمكث هناك ست سنوات، أخذ فيها العلم عن علماء مرموقين بالأزهر مثل: شيخ الإسلام سليم البشري وهو نقيب المالكية وإمام الحديث في

وقته (توفي سنة 1385ه /1917م)، والعلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ محمد محمود الشنقيطي اللغوي الشهير، والشيخ أحمد الرفاعي وغيرهم كثير.

وكان الشيخ محمد عبده يرأس لجنة الامتحان التي تقدم إليها الشيخ شعيب لدخول الأزهر، ووجد صعوبة في ذلك بسبب عجز اللجنة عن قراءة خطه المغربي، لولا تدخل الشيخ محمد عبده الذي طلب إجراء الاختبار له شفوياً.

وكان لإقامته في مصر، المنفتحة على أوربا والحضارة الغربية، والتي تحمل مجلاتها وجرائدها وكتبها أبحاثاً ودراسات ومقالات تعبر عما تمر به آنذاك من نهضة فكرية وإصلاحية، أثره الكبير في نفس الطالب الشاب أبي شعيب الدكالي وتكوينه العلمي وتوجيهه الفكري[1].

## مكوثه بمكة المكرمة:

وفي سنة 1320 ه طلب والي مكة المكرمة الشريف عون الرفيق من الأزهر إماماً ومفتياً وخطيباً للحرم المكي، يكون عالماً مطلعاً على الكتاب والسنة، وذلك بسبب قوة ظهور الدعوة السلفية في نجد مما أثر على وضع الحجاز. فرشح شيخُ الأزهر الشيخ سليم البشري أبا شعيب لهذه المهمة، فالتحق هذا الأخير بالحرم المكي حيث تولى الإمامة والخطابة والإفتاء على المذاهب الأربع. وكانت له دروس متعددة بالحرمين الشريفين منها: التفسير وشرح الكتب الستة وشرح بعض كتب السيرة ككتاب الشفا للقاضي عياض، والشمائل للترمذي، ودرس اللغة والأدب، ودروس في الفقه وأصوله والقراءات والمصطلح.

[1]- أعلام المغرب العربي، عبدالوهاب بن منصور، ج2 ص 198 المطبعة الملكية بالرباط.

وانتهز أبو شعيب فرصة الالتقاء بعدد كبير من علماء المسلمين الذين يسكنون مكة أو يزورونها، فأخذ عنهم العلم، وهم من بلاد شتى مثل اليمن والشام والعراق والهند.

كما أجاز أبو شعيب عدداً كبيراً من طلبة العلم من مختلف بلاد العالم مثل: الحاج مسعود الوفقاوي والشيخ محمد العربي الناصري وكلاهما من علماء المغرب، والشيخ يوسف القناعي من الكويت، والشيخ محمد الشنقيطي من علماء موريتانيا، والشيخ عبدالله بن حميد مفتي الحنابلة بمكة المكرمة، والشيخ محمد سلطان المعصومي من علماء ما وراء النهر صاحب كتاب "هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين"، وغيرهم كثير.

وبسبب غزارة دروسه العلمية وقوة أفكاره الإصلاحية ووفرة طلابه وتأثيره الواسع في الحجاج والمعتمرين انتشر ذكره في العالم الإسلامي وقوي تأثيره.

وكان ذا أفق إصلاحي واسع، يحث على العمل والإنتاج، وعلى الاهتمام بشؤون الدنيا كما بشؤون الدين. وفي إحدى خطبه بالحرم المكي يظهر هذا النفس الإصلاحي جليا، كما يظهر وعيه العميق بقيم الرقي والنهوض التي فقدتها العديد من المجتمعات المسلمة. وهي خطبة أوردها محمد رياض في كتابه سابق الذكر. يقول فيها: "اعملوا لدنياكم اعملوا لآخرتكم، اعملوا لدنياكم ما يرقي بلدكم، اعملوا لدنياكم ما يرقي أولادكم، اعملوا لدنياكم ما يجعل يدكم عليا. فقد قال عليه الصلاة والسلام: (اليد العليا خير من اليد السفلى)، فالمحترف أمير والسائل ذليل.

اعملوا لدنياكم ما يقلل البطالة في البلد التي كان يتردد فيها جبريل بالوحي والتنزيل. اعملوا لدنياكم أحباب الديان، فأنتم تعلمون أن أسباب المعايشة أربعة: إمارة وتجارة وزراعة وصناعة.

فأما الإمارة فلا يتعيش بها إلا الأنفار المحدودون دون الغير الكثير.

وأما الزراعة فأنتم بِواد غير ذي زرع كما حكى الحكيم الخبير.

فما بقي إلا الصناعة والتجارة، وهذه البلاد الطاهرة خالية من الصناعة، وتجارتها ضعيفة مزجاة البضاعة، فهلمّوا إلى ما ينفعكم وسلوا من واليكم الجديد المظفر المعان أن يساعدكم على إنشاء مكتب صناعي، فهذا الجلد المباع في بلدكم بالقرش والقرشين، ويصنع ويرد إليكم فتشترونه بالمائة والمائتين، فكأنكم لم تقرؤوا قول الله جل وعلا: {ومِن جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم}...".

ويتضح من هذه الخطبة طبيعة الخطاب الإصلاحي الذي كان يبثه أبو شعيب في المسلمين، وتركيزه على ضرورة عمارة الدنيا والأخذ بأسباب القوة والتقدم والرقي. وقد حمل تلامذته هذه المفاهيم معهم إلى بلدانهم. فهذا تلميذه الشيخ يوسف عيسى القناعي يصبح مصلح الكويت الكبير، ويؤسس بعد عودته للكويت المدارس القرآنية والعلمية والمكتبات العامة. وكان من المؤسسين لمجلس الشورى بالكويت سنة 1921م ومن مؤسسي المجلس البلدي فيها. كما تولى القضاء وله العديد من المؤلفات. وها هو تلميذه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي يفتح المدارس والمعاهد في العراق والأحساء، وينشر الدعوة السلفية هناك.

## رجوعه إلى المغرب

لم ينقطع أبو شعيب الدكالي عن زيارة بلده في هذه المراحل كلها. وهي زيارات مكنته من توثيق صلته بالأمير المولى عبد الحفيظ عندما كان خليفة على مراكش لأخيه السلطان مولاي عبد العزيز. وعندما أصبح المولى عبد الحفيظ ملكا على المغرب زاره أبو شعيب مهنئا ومبايعا بفاس. فما كان من مولاي عبد

الحفيظ إلا أن ألح عليه في العودة نهائيا إلى بلاده قائلا: "لا بد أن يستفيد منك وطنك، والمغرب في حاجة إلى مثلك". هكذا عاد أبو شعيب إلى وطنه المغرب سنة 1325 هـ/ 1907م. واستقر بمدينة فاس، فقام بمهام التعليم وبث أفكار الإصلاح الديني والاجتماعي. وفي سنة 1329 هـ/ 1911م تولى قضاء مراكش، واشتهر بالنزاهة والعدل. ثم عين وزيرا للعدل سنة 1330 هـ/ 1912م، واستمر فيه لمدة 12 سنة إلى 1342هـ/ 1923 م. وأضيفت له بعد ذلك بسنتين إدارة المعارف والشؤون الدينية، كما أسندت له رئاسة المجلس الأعلى الاستئنافي عند تأسيسه. وفي عهده بدأ تنظيم القضاء، كما بدأ تنظيم جامعة القرويين وتجديد الدروس فيها. فقدم طلب الإعفاء من المسؤولية لأسباب صحية، لكن الراجح أن السبب الحقيقي هو ضغوط سلطات الحماية التي كانت غاضبة من مقاومته لتدخلاتها في شؤون القضاء والتعليم. فمنح، اعترافا بالجهود التي بذلها في مهامه، لقب "وزير شرفي". وانقطع للتدريس بعد ذلك في مدينة الرباط إلى أن توفي سنة 1356 هـ/ 1937 م. وبهذا يكون أبو شعيب الدكالي قد عايش خمسة ملوك مغاربة من الحسن الأول إلى السلطان محمد الخامس.

إن أحد الدروس المهمة التي تستفاد من سيرة شيخ الإسلام أبي شعيب الدكالي أنه اختار منهج تولي المسؤوليات العامة ما استطاع جلب مصالح للبلاد والأمة، ولو كان ذلك تحت حكم الاستعمار الفرنسي. لأن البديل ليس هو إلا أن يختار الفرنسيون من يسايرهم أو يخضع لتعليماتهم ويسيء إلى البلاد والعباد. وهذا منهج العديد من العلماء الأعلام في التاريخ القديم والحديث، لا يقاطعون تولي المسؤوليات العامة بل يكابدون معاناتهم ويعملون على جلب أعلى ما يمكن من المصلح بها ودرء أقصى ما يمكن من المفاسد.

## ▪ ثالثا ـ آثاره وتأثيراته

طبع أبوشعيب الدكالي المسيرة العلمية والإصلاحية بالمغرب في النصف الأول من القرن العشرين، وترك آثارا بعيدة المدى، نوجز أهمها فيما يلي.

### 1 ـ تخريج جيل الوطنية

تتطور الأمور في هذه المرحلة في المغرب الذي كان يعيش فترة جمود فكري وعلمي، على الرغم من وجود علماء يبرزون بين الفينة والأخرى في بعض المراكز العلمية، وخصوصا جامع القرويين، يقاومون التقليد في المجتمع ويحاولون أن يجددوا. ولكن تلك الجهود لم تكن قوية ومؤثرة في الحياة العلمية والاجتماعية، حيث ساد الضعف والانحطاط والخرافة في كثير من الأوساط. وكانت هناك بعض المحاولات الإصلاحية الجريئة من قبل السلطانين سيدي محمد بن عبد الله ومولاي سليمان، ومن قبل بعض دعاة الإصلاح من العلماء، إلا أن الحياة الاجتماعية كانت مستعصية والظروف السياسية الداخلية والمحيطة كانت قاسية. وشعر بعض وزراء السلطان مولاي عبد العزيز بضرورة القيام بشيء ما نتيجة الهم الذي كان يشعر به الجميع في تلك المرحلة، وتكالب القوى الأوربية، وخصوصا فرنسا وإسبانيا، على البلاد، وزيادة ضغوطهما لجعلها ضمن مناطق نفوذها الاستعماري. فأرسل بعض أولئك الوزراء للشيخ محمد رشيد رضا يطلبون أن يرسل من يعين على التوعية بمبادئ تجديد الدين ومقاومة الخرافات والحث على العمل، لأنه عندما تجمد حياة الناس الدينية وتجمد حياتهم الدنيوية أيضا، وعندما يشبون على التقليد، وعندما تستولي عليهم الخرافة. فكلم محمد رشيد رضا محمد عبده في الموضوع، ففكر هذا الأخير في أن يأتي بنفسه. ومعروف أن محمد عبده قد زار

تونس والجزائر، وكان له تأثير في الحركة الإصلاحية فيهما. لكنه لم يتمكن من زيارة المغرب ولا تمكن محمد رشيد رضا من إرسال شخص آخر.

وقيض الله أبا شعيب الدكالي ليكون ذلك المطلق لشرارة التجديد. فكان يبث أفكاره الإصلاحية في مختلف الحواضر والبوادي المغربية. وخصوصا في فاس والرباط ومراكش. وقد كان التدريس وسيلته للتربية الدينية والخلقية والسياسية، وظل مداوما عليه في جميع مراحل حياته وظل شغله الشاغل حيث ما حل. واستمر على ذلك في مختلف مراحل توليه المسؤوليات الرسمية. وكان يؤطر بمنهج جمع فيه علوم المغرب والمشرق، يمزج – على غير عادة من سبقه - علوم القرآن وقراءاته وإعرابه وناسخه ومنسوخه، وأحكامه ومعانيه، بعلوم الحديث والسنة، وفقه معاني الآثار، واستعراض أراء أئمة مختلف المذاهب، إضافة إلى الاستدلال المتمكن بعلوم اللغة العربية بأنواعها. وشكلت دروسه نموذجا حيا لطاقة علمية كبيرة، نفخت روح التجديد والوطنية في جيل من تلامذته، أصبحوا من بعد منارات للمغرب. يقول تلميذه المؤرخ عبد السلام بنسودة يصف دروسه: "وفي طول حياته لا يترك التدريس في أي محل كان وفي أي بلد دخل، وترى الجموع محتشدة على درسه حتى إنك إذا لم تذهب قبل الوقت بساعات لا تجد محلا قريبا منه تجلس فيه، فإن جامع القرويين على كبره كان يمتلئ نحو النصف منه بدون مبالغة". وهكذا فإن كبار قادة الحركة الوطنية وقادة الفكر والعلم في تلك الفترة درسوا على يديه واستفادوا من علمه وفكره التجديدي. وكثير منهم سجلوا سيرته وأفكاره في مقالات أو رسائل أو مؤلفات. وكل من كتب عنه كتب بإعجاب وتجليل وتوقير، ووصف عنه العجائب علما وفكرا وحماسا وإصلاحا. هذه القوة العلمية والإصلاحية كان لها تأثير في مئات من شباب تلك المرحلة. ولذلك فإن أهم الآثار الطيبة لشيخنا هو أنه خرج جيلا من التلامذة، أصبحوا من بعد زعماء الحركة الوطنية، وزعماء الحركة

السلفية والتجديد الديني في المغرب. وعلم جيلا متنوع الاختصاصات والاهتمامات، وكل واحد منهم أخذ طريقا معينا، في العلم أو التدريس أو العمل السياسي أو النضال الاجتماعي. ومن أشهر تلامذته شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي، وهو من كبار رواد السلفية الوطنية المعاصرة، ولكن أكثر ريادة منه شيخه أبو شعيب الدكالي، وهو عالم يتقاسم معه كثيرا من المشتركات. ومنهم أشهر تلامذته محمد السائح، والشاعر محمد بن اليمني الناصري، والمؤرخ عبد الله الجراري، والرحالي الفاروق، وعبد الله كنون، وعلال الفاسي، ومحمد المكي الناصري، ومحمد بربيش، ومحمد المختار السوسي وغيرهم كثير. ولنعرف مقدار تأثير الأستاذ في تلامذته، نستعرض هنا نماذج من ثنائهم عليه واستحضارهم لتأثيره العلمي والإصلاحي فيهم وفي واقعهم.

فمن كبار من تأثر به **شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي** (1884م - 1964م). فقد أخذ عنه شرح صحيح الإمام البخاري للقسطلاني وموطأ الإمام مالك وجامع الترمذي ومقامات الحريري والنخبة في الاصطلاح لابن حجر وتفسير أبي البركات النسفي، فأنار فكره برؤى التجديد، وشجعه على تبني منهج الاجتهاد وترك التقليد. وبذلك انقلب محمد بلعربي العلوي من فقيه عادي إلى مفكر إسلامي وزعيم وطني. ولا غرو إذن أن يعين وزيراً للعدل ابتداءً من سنة 1938م بعد استعفاء أستاذه أبو شعيب الدكالي من ذات المنصب. وكان محمد ابراهيم الكتاني (ت 1411ه/ 1990م) يقول: "**كان شيخنا الفقيه محمد بلعربي العلوي رحمه الله دائم الثناء على شيخه أبي شعيب وكان يذكر أنه هو الذي عرفه السلفية وغير مجرى حياته الفكرية ويعترف له بالفضل الجزيل عليه جراء ذلك**". وإن عبارة: "غير مجرى حياته الفكرية" سنجدها لدى تلامذة آخرين لأبي شعيب الدكالي، وتحمل العديد من الدلالات والمعاني. فأبو شعيب أثر ليس فقط بما لقن من معارف، ولكن أيضا بما

علم من منهجية تجديدية، من اجتهاد ينأى عن التقليد، بما نفخ من روح إصلاحية وروح وطنية. ولهذا أسميناه هنا أستاذ جيل الوطنية. فهذا أكبر تأثيراته، حتى يمكن أن نقول دون مبالغة أن أبا شعيب الدكالي له أكبر الفضل في نشأة الحركة الوطنية وفي تطور الحركة العلمية في العقود الوسطى من القرن العشرين. ويستعرض المؤرخ عبد السلام بنسودة في كتابه "دليل مؤرخي المغرب الأقصى"، وهو بيبليوجرافيا للكتب التي أرخت للمغرب وكتبت في تاريخ المغرب، طبيعة تأثير الأستاذ أبي شعيب في تلميذه: "لما رجع الشيخ أبو شعيب الدكالي من المشرق عندما طلب العلم هناك راجعا حاملا الأفكار السلفية الداعية إلى الرجوع إلى الإسلام على حقيقته، اتصل به الشيخ محمد بلعربي العلوي اتصالا مكينا وأخذ عنه فأنار فكره وقوى عزيمته وأخرجه من ربقة التقليد الأعمى فكان صاحب الترجمة أول من أظهره الله للوجود من العلماء السلفيين وأول من صدع بالحق بعد الشيخ أبي شعيب الدكالي".

ومن كبار تلامذة الشيخ أبي شعيب الدكالي **المؤرخ عبد السلام بنسودة** (1400هـ/ 1980م)، الذي قال: "**آخر من رأينا على طريق الحفاظ المتقدمين الذين بلغنا وصفهم ولولا أني رأيته يملي لدخلني الشك في وصفهم**"، يقصد أن ما لدى أبي شعيب من الحفظ إنما كان يروى عن العلماء السابقين، ولم يكن أحد يراه فيمن عايشوهم حتى ظهر لدى أبي شعيب الدكالي. فقد كان له مستوى عال من الحفظ يستحضر الشواهد والنصوص كأنها بين عينيه، سواء منها روايات الحديث من صحيحي البخاري أو مسلم أو غيرهما من دواوين السنة، أو النصوص الفقهية والبلاغية ويستشهد بالشواهد الأدبية وأحداث التاريخ كأن الحاضرين في حديقة يعطيك فيها من كل الفنون، كما يقول محمد المختار السوسي.

ومن تلامذته أيضا **عبد الحفيظ الفاسي** (ت 1383ه/ 1964م) الذي يقول عنه في كتابه "معجم الشيوخ": "**أوحد علماء عصره، وأشهر علماء المغرب في وقته، من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، إمام في علوم الحديث والسنة، إمام في علوم الحديث والسنة وفقه معاني الآثار**". وبعد أن يصف علمه الغزير في مختلف العلوم الشرعية واللغوية يضيف قائلا: "**ملازم لنشر العلم والدؤوب على تدريسه صيفا وشتاء، بل لا يخلو مجلس من مجالسه من الإفادة، منقطع القرين وعديم النظير في كل ذلك، يضرب به المثل في الحفظ والاستحضار، وحسن الإملاء وقوة العارضة، شهد له الأكابر بالكمال في كل ما ذكر، له التقدم والجاه مع سلامة الصدر والسعي في إيصال الخير لكافة الناس والتواضع وحسن الأخلاق**".

ومن تلامذة أبي شعيب الذين نفخ فيهم علما وعملا ووطنية وروحا جديدة **محمد المختار السوسي**. وهو الذي تغيرت حياته عند أول لقياه به. فقد كان يدرس في جامع ابن يوسف بمدينة مراكش حين قدم إليها أبو شعيب. يقول السوسي في كتابه "الإلغيات" وهو يصف تلك اللحظة: "**وبينما أنا أسبح فيما أنا فيه، إذ جاء الشيخ أبو شعيب الدكالي عام 1342ه إلى مراكش مع السلطان مولاي يوسف، فتجددت آراء في مجالسه، واستحدثت أفكار، وانتسفت معتقدات، فدبت تلك الحياة المذكورة في أجلى مظاهرها، فصار كل شيء مر يستحلى في تطلب المعارف، فقلت: إما المعارف وإما القبر**". ويصف في مكان آخر تغير مجرى تفكيره بعد الاتصال بأبي شعيب الدكالي والتتلمذ على يديه قائلا: " **ثم في سنة 1342 هـ طلع علينا السعد بطلوع الشيخ أبي شعيب الدكالي، فكان ذلك في حياتي إجافة لباب وفتحا لباب آخر**". وفي "مشيخة الإلغيين من الحضريين" يصف تلك اللحظة بطريقة أخرى: "تلك العشية (يقصد أول درس حضر المختار السوسي لأبي شعيب) هي الوقت الذي حد ما بين المختارين"، بين المختار السوسي الأول "**ذلك المختار الوضيع**

**القنوع المتزمت المزَّمِل في شملة الخمول، المكتفي بترديد بعض أدبيات جافة مُملة باردة"**، والمختار السوسي الثاني، "المختار الذي يرفع رأسه ويتطلب أن يلم بكل علم، ويقبل بنهم زائد، وإمعان في خوض المعارف، لعله يكون له من بين حملته نصيب".

وهكذا نرى كيف أن درسا واحدا للشيخ أبي شعيب الدكالي كان كافيا لنفخ روح جديدة في تلميذه. ويقول المختار السوسي كذلك في الكتاب نفسه: **"أخدنا عنه هناك ما شاء الله من التفسير حتى انبثاق الفجر في مسجد صغير، وكان يدرس مع الطلبة، فكان رحمه الله يزرع فينا النشاط بتبكيره، فلم يكن رحمه الله بنائم الصبيحة وما كان له ذلك بخلق، بل كان ذا همة لا تذره كثيرا في سريره الوثير، ولا أدري كم منا هنا ينام الصبيحة".**

هذه الشهادات وغيرها من تلامذته تعكس ذلك التأثير القوي، الذي غير مجرى حياة كثير منهم، ودفع بهم إلى المشاركة في الإصلاح وفي العمل الوطني بقوة.

ونختم ببيتين من الشعر خاطب بهما أحد أولئك التلامذة وهو محمد المكي الناصري شيخه أبا شعيب الدكالي ليلة ختمه لسنن ابن ماجه بالزاوية الناصرية، هما قوله:

**أسست للإصلاح أسا ثابتـا * وفتحت منه كل باب موصد**

**أظهرت للناس الحقيقة جهرة * لم تخش في دعواك قول مفند**

## 2 ـ إحياء السلفية التجديدية

كان أبو شعيب الدكالي أحد رواد إحياء السلفية الوطنية بمنهج تجديدي. وهي سلفية تختلف عن أنواع من السلفية التي شاعت بعد ذلك. فقد أصبحت لدى كثيرين تشددا وحرفية، ولدى آخرين توزيعا للتهم على الآخرين. إن السلفية في بدايات القرن العشرين وأواسطه كانت تعني الرجوع إلى أصول الدين، وإلى الكتاب والسنة، بمنهج يقطع مع التقليد، والاستفادة من كلام العلماء والفقهاء السابقين، دون الجمود على أقوالهم ودون احتقارهم أو التنقيص منهم. وقد كان أبو شعيب يدرس مختصر خليل، ويستشهد به، ولكن استشهاد العالم العارف، الذي يقارن. ولذلك قال تلامذته إن المختصر دُرّس لأول مرة على يد أبي شعيب الدكالي تدريسا جديدا ممتعا، تدريس المجتهد لا تدريس المتلقي فقط. وهكذا فإن السلفية هنا هي سلفية تجديدية متنورة منفتحة واجتهادية. وهي سلفية وطنية، بل هو الرائد الحقيقي للسلفية الوطنية. لننصت إلى أحد تلامذته الأستاذ **علال الفاسي** يقول: **"كان الفقيد في الرعيل الأول من أشياخنا الذين نعوا على التقليد وحاربوا الجمود ودعوا إلى التحرُّر من قيود العصور الأخيرة المنحطَّة، والسمو بالفكر إلى مستوى السلفية الأولى التي تعبد الله خالصاً له الدين توحى بالعقل في الفهم والتفهيم، وترجع إلى القرآن والسنة في البرهنة والتدليل".** ويقول تلميذ آخر هو **الرحالي الفاروقي** بأن الشيخ كان **"علما من أعلام المغرب الشاهقة وفذا من الأفذاذ الذين يفتخر بهم في ميدان المعرفة والإصلاح، وفي خدمة الكتاب والسنة، ورفع رايتهما ونشر معانيهما وإقامة أحكامهما، بل كان يعتبر من الرعيل الأول في المغرب الذين أخذوا على أنفسهم إحياء العقيدة السلفية، وبعث الروح الإسلامية الصحيحة في النفوس، باعتماد وحي الكتاب العزيز، ووحي السنة الذي لا ينطق عن الهوى، ونبذ ما سوى ذلك من الأقوال الموهومة والعقائد المشبوهة، والخرافات المدسوسة،**

**التي أخرت سير المسلمين وشوهت سمعة الإسلام"**، إلى أن يقول: **"وكان ينادي في كثير من دروسه، باعتبار المعرفة الصحيحة أساسا للحضارة الإسلامية، واعتبار العقيدة السلفية التي جاء بها الكتاب والسنة حصنا من الأمراض الوثنية، وكان رحمه الله حربا على البدعة لا تأخذه في ذاك لومة لائم، ويحمل حملات عنيفة ضد العقيدة المخلوطة بالشك والشرك".**

وقد رأينا من قبل قول تلميذه **المختار السوسي** بأنه بمجيء الشيخ أبي شعيب إلى مراكش **"تجددت آراء في مجالسه، واستحدثت أفكار، وانتسفت معتقدات، فدبت تلك الحياة المذكورة في أجلى مظاهرها".**

هذه الشهادات المتواترة عن قوة المنهج التجديد الإصلاحي لدى أبي شعيب جعل أحد كبار تلامذته العلامة **عبد الله كنون** يسميه **"عبده المغرب"** وذلك في شهادة عنه في كتابه "التعاشيب" وضع لها هذه العبارة عنوانا. يقول فيها: **"إذن فهو عبده المغرب، وهو شيخه الإمام، ولئي اختلفا في بعض الأوصاف فقد اتفقا في أصلها، والغالب عليهما منها هو الإصلاح والتجديد، والإيقاظ والتنبيه".**

وكما قلنا فهذه السلفية سلفية تجديدية ولم تكن تكفيرية ولا مهمومة باتهام الناس، بيانية إصلاحية وليست صدامية، واسعة الأفق تروم النهضة الشاملة للأمة، وليست مركزة على بعض القضايا التي قد يكون منها ما فات وقته وتعلق بظروف ثقافية وحضارية وسياقات خاصة.

وكانت سلفية برهانية، تخاطب العقل والمنطق، وتعتمد الدليل المقنع أيا كان نوعه. لذلك يقول **عبد الكبير الزمراني** وهو من تلامذته: **"أما من الناحية التفكيرية فقد رجع أبو شعيب مزودا بعقيدة سلفية مؤيدة بالمعقول والمنقول، وكان عمله برهانا، وكان يقيم البراهين ليحق ما هو حق ويبطل ما هو باطل، وكان**

**مما أوتيه من المواهب كالجيش وحده، شن الغارات على كثير من البدع والخرافات فهزمها، وغزا كثيرا من الأرواح والنفوس فقومها، وكان يدا من نور تقلع الخيالات وتغرس الحقائق، وتمحو الأساطير، وتثبت الحق المبين، وتحصد الشك والوهم، وتبذر الجزم واليقين، وكانت له بجانب هذه المزايا صرامة حادة في الحق، كانت له بمنزل المنفذ لما يصدر من أحكام الشرع، وقد وقف مواقف كثيرة دلت على ما له من صرامة وإقدام".**

ومما يحسن إيراده في هذا السياق ما أورده محمد كنوني المذكوري (ت 1398هـ) وهو الذي يسر الله لي أن أتردد عليه لمدة سنتين في الدار البيضاء رحمه الله بمعية الشيخ محمد زحل، وأن نستفيد منه، وكان رئيس الفتوى في رابطة علماء المغرب، وأصدر كتابا آنذاك يتضمن فتاواه. وقد قدم له العلامة عبد الله كنون، وكانت فيه فتاوى شبه رسمية للرابطة. يقول محمد كنوني أثناء جوابه عن إحدى الفتاوى: "قيض الله لهذا الشعب المغربي النبيل أحد أبنائه البررة الإمام شيخنا وشيخ الإسلام المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي رحمه الله وجزاه خيرا خير ما يجازي به كل مصلح، فقد كانت دروسه بردا وسلاما على قلوب المنتبهين والحائرين، وجحيما على المقلدين الجامدين، حيث حمل على البدعة والتقليد، وندد بأصحابهما أيما تنديد فانبثقت من درسه عدة دروس اشتاقت لسماعها الكثير من النفوس، وخفقت أعلام السنة في المدن والبوادي، وغنى لها كل من الرائح والبادي، وأدبرت فنون البدعة تتعثر في أثواب الخجل والوجل وتمت كلمة الله عز وجل، فله على هذا الشعب الفضل العظيم وسيلقى ذلك عند الله الغفور الرحيم، فزالت بذلك عن كثير من القلوب الغباوة وعن أعين الكثير من الغشاوة". فرحمة الله عليهم أجمعين. والكنوني كان من حاملي لواء السنة والتجديد في مدينة الدار البيضاء.

وقد أورد عبد الله كنون أسس دعوة الشيخ أبي شعيب فلخصها في غايتين اثنتين:

الأولى إحياء علم الحديث ونشره، وكان كثير من علماء المغرب لا يهتمون بعلم الحديث، كانوا يهتمون بالفقه أكثر، فهو أحيا علم الحديث ونشره على أوسع نطاق، لما كان فيه من رسوخ القدم، وقوة العارضة، والمشاركة في علومه والحفظ والإتقان.

والثانية وهي بيت القصيد، الأخذ بالسنة والعمل بها في العقائد والعبادات، ومواجهة الخرافات والأوهام، والأقوال الواهية. وأحدث تحولا كبيرا في مفهوم الاجتهاد، وفي الترجيح والعمل بالسنة عند ثبوتها ونبذ ما خالفها.

إن هذه الأقوال تبين طبيعة سلفية أبي شعيب، السلفية العملية المناضلة، المرتبطة بالعمل الوطني. وكان له سعي حثيث لنشرها في الواقع بين الشباب، في البوادي وفي القرى، ولذلك كانت له رحلات، يقول عبد الله الجراري: "فكان من فينة لأخرى ينتقل من بلد لآخر، ومن مدينة لقرية، يبث الوعي واليقظة وينشر السلفية الداعية للتحرر والانعتاق من التقليد الأعمى، ورواسب التحجر والجمود"، ويصفه بأنه "**ضرب الرقم القياسي في الوطنية الحق، التي تتجلى وبصدق في التكوين الصالح وتربية النفوس على المثل العليا، وجعلها في خدمة البلاد، والحفاظ بالطبع على مقوماتها، دينا وسياسة واقتصادا**". لذلك فإن سلفيته كانت مشبعة "بأفكاره التحررية، وآرائه المنطقية التي كونت منه رجل المقاومة لكل ما يمت بسبب إلى الشعوذة والشعبذة، وما كان يبدو من بعض الطوائف من غلوّ وانحراف عن الجادّة"، وذلك ما جعل السلطات الاستعمارية تضغط "لعزله عن الوظيفة كانتقام من حريته المطبوعة، ورغم ذلك فما زاده العزل إلا تفرغاً لأداء

الرسالة التي تحملها منذ شبابه الأول"، كما يقول الجراري في كتابه الذي خصصه لشيخه، وعنوانه "المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي".

لقد كان الشيخ أبو شعيب الدكالي مهموما بالعمل الوطني، مهموما باستقلال البلاد، يعمل على مواجهة سلطات الحماية. فعندما كان وزيرا للعدل لم تكن مهمته سهلة، مع سلطات الحماية، ولا عندما أضيفت له وزارة المعارف. فكان يصطدم بها كثيرا. لقد كان من لأبي شعيب الدكالي أن يتفرغ للتدريس ونشر العلم فقط، دون أن يتولى مسؤوليات رسمية. لكنه أسهم في مختلف مداخل الإصلاح المتعددة. فهذه سلفية متنورة منفتحة متفاعلة مع واقعها، متفاعلة مع الأحداث من حولها. سلفية تحاول الإصلاح بكل الأساليب. فقبل تحدي تولي المسؤوليات مع بداية عهد الاستعمار، فأغلق الباب على سلطات الحماية وعلى الذين يدورون في فلكها ويمالؤونها. وحقق في ذلك ما استطاع من المصالح في العدل والتعليم بروح وطنية عالية.

والدليل على ذلك أن العلماء كانوا جالسين ذات مرة يتناقشون حول النملة في قصة النبي سليمان، هل التاء فيها للوحدة أو للتأنيث. وهو نقاش معروف من العلماء. فقال لهم أبو شعيب: لقد فرغ العلماء من البحث في هذا الموضوع منذ قرون، وكان ينبغي لنا نحن أن نبحث عن الطرق التي تمكننا من طرد الجيش الفرنسي الذي بدأ يحتل بلادنا منذ سنوات. فمنهجه في العلم التركيز على القضايا التي تفيد الأمة، وتفيد البلد. وهكذا كان مهموما بالعمل والإسهام في استقلال البلاد، ولذلك كان تلامذته كلهم وطنيين، نفخ روح الوطنية وروح الاستقلال، وكانوا هم مؤسسي الحركة الوطنية التي كان لها دور كبير في استقلال المغرب.

ولم يكن أبو شعيب يعادي التصوف، بل كان هو من عرف بالتصوف السني، لأن التصوف إن كان يعني محبة الله ورسوله، إن كان يعني الإيمان الصادق، إن كان يعني العبادة الصادقة بالروحانيات العالية، واستحضار النية في جميع أعمال الإنسان، عبادة الباطن وليس فقط الاكتفاء بعبادة الظاهر، إن كان يعني الخلق العالي الرفيع، المروي عن رسولنا صلى الله عليه وسلم، فهو من الدين ومن السنة. وتلك هي السلفية الحقيقية. ولم يكن أبو شعيب يرى صراعا أو تناقضا بين السلفية الحقة والصوفية السنية، هما شيء واحد، مثل وجهين لعملة واحدة، هذه تنظر إلى جانب المعتقدات والأفكار، والأخرى تنظر إلى جانب عبادة القلوب والعواطف، وإذا زدنا الأفكار والعبادات الظاهرة على العواطف الجياشة في المحبة والخشية والخشوع والتقرب إلى الله فقد أتممنا الدين، وهذا هو الدين الحقيقي، فلذلك يجب أن نحذر من هذا الصراع المتوهم.

ثم تلك السلفية هي سلفية تجديدية، فالواضح عند أبي شعيب الدكالي في كثير من فتاواه أنه كان متقدما حتى على كثير مما نشاهد اليوم. فقد كان منهجه التيسير لا التعسير، كان يرغب في الأخذ بالرخص كما رغبنا رسول الله صلى لله عليه وسلم في الأخذ بالرخص بقوله: "إن الله يحب أن تأتى رخصه كما يحب أن تأتى عزائمه"، فإتيان الرخص جزء من الدين. وقد سبق لي أن قلت في إحدى المحاضرات بأن هؤلاء الذين يريدون العزائم دون رخص يريدون دينا فيه وضوء بلا تيمم، وفيه صوم بدون الأعذار المبيحة للصوم، من السفر والمرض وغيرهما، يريدون أحكام التحريم دون الأعذار المبيحة من ضرورة وغيرها. والله تعالى يقول: "فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه". فالدين متكامل لا يؤخذ منه جزء ويترك جزء آخر، ولم يكن من نهج الرسول صلى الله عليه وسلم الأخذ بالعزائم دائما.

**3 ـ تجديد مناهج التدريس**

أحدث أبو شعيب الدكالي بشهادة جميع من عاصروه ثورة في الفكر الديني وفي مناهج التدريس. فقد دعا إلى اعتماد الكتاب والسنة في تمحيص الآراء الفقهية، وإلى عدم الاكتفاء بالمختصرات المتأخرة والاتصال المباشر بكتب كبار أئمة الإسلام. كما دعا إلى إعمال العقل وتوسيع مدى الاجتهاد. وأعطى في ذلك التطبيق العملي في دروسه وفتاواه وطريقة تناوله للقضايا العقدية والفقهية المختلفة، مستعينا في ذلك بمختلف عطاءات المعرفة البشرية في مجالات شتى. وهذا النوع من التناول لم يكن معروفا بين العلماء في ذلك التاريخ، مما جعله فعلا أكبر مجدد للفكر المغربي في عهده. لذلك عندما يذكر **علال الفاسي** – وهو أحد تلامذته - التأثيرات التي أدت إلى كون المغرب حيي بالعقيدة السنية وبالدعوات الإصلاحية التي وفدت إليه، من خلال المجلات مثل مجلة المنار لمحمد رشيد رضا، وأفكار بعض علماء المشرق، وذلك في كتابه "الحركات الاستقلالية في المغرب الأقصى" أضاف قائلا: **"ولكن هذا كله لم يكن له من الأثر ما أحدثه رجوع المصلح الشيخ أبي شعيب الدكالي، فقد عاد وكله رغبة في الدعوة إلى هذه العقيدة والعمل على نشرها، والتف من حوله جماعة من الشباب النابغ (...) ".**

وساعد على انتشار دعوته **تجديده في طريقة التدريس.** فمن ذلك أنه كان منفتحا في دروسه العلمية، يتفاعل مع طلبته، ويتقبل تساؤلاتهم ولو أثناء إلقائه الدرس. ويستثير مستمعيه بالإشارات الدقيقة والنكت أحيانا، ويزرع الحيوية والنشاط الفكري والمعنوي في حاضريه. وقد شرح المختار السوسي مطولا ذلك في التعريف الذي خصه به نورد منه ما يلي: **"لقد أحيا الله به أفكارا ونشر به علوما، واستبدل به حالة بأخرى، حتى انقلبت أساليب التدريس، وسلكت مجاري التفهم للعلوم مسلكا آخر، فانقلبت بسببه جميع أحوال الطلبة من جنب إلى جنب آخر،**

**بالتدريج، شعروا كلهم بذلك أولم يشعروا (...) لذلك كان علامتنا مقصد العلماء والطلبة، وسمع عنه عدد كبير من العلماء سواء بفاس أو غيرها من المدن الأخرى التي حل بها في بلدان المغرب أو المشرق، حيث ألقى دروسا بالأزهر بمصر وبجامع الزيتونة بتونس. وتتلمذ على يديه جيل من العلماء والمفكرين المغاربة الذين أسهموا في بناء المغرب الحديث".**

ويضيف المختار السوسي: "ونظرا لهذه الدرجة العلمية العالية أحرز الرئاسة العلمية في الدروس السلطانية بالقصر الملكي على عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ، والسلطان المولى يوسف، والعاهل محمد الخامس الذي ظل في كنفه إلى أن وافته المنية سنة 1937م رحمهم الله جميعا ورضي عنهم"

### 4- إحياء تفسير القران

من الأمور التي جدد فيها العلامة أبو شعيب الدكالي، أنه أحيى تفسير القران الكريم في جوامع ومساجد المملكة. وقد كان ممنوعا منذ عهد السلطان مولاي سليمان بسبب خرافة سيطرت على الناس مؤداها أنه إذا فسر القرآن مات السلطان. فانقطع تفسير القرآن منذ ذلك الوقت، وبقي فقط يُقرأ تلاوة وسردا. وتواضع الناس علماء وحكاما على ذلك الوضع حتى أتى الشيخ أبو شعيب الدكالي فكان من أول ما بدأ به من الإصلاح أن أحيا تفسير القرآن. يقول محمد بنبراهيم الكتّاني عن محمد بن العربي العلوي أن "من أعظم مآثر الشيخ أبي شعيب أن المغاربة كانوا قد انقطعوا مدة عن دراسة تفسير القرآن، متعللين بقول بعض الصادين عن كتاب الله: صوابه خطأ وخطأه كفر، وكان بعضهم يتوهم أنه إذا قرئ التفسير مات السلطان، فلو وجد من يريد قراءة التفسير لامتنع خشية أن يتهم بأنه

يسعى بذلك في موت السلطان. فلما جاء الشيخ لفاس استغل مكانته عند السلطان لمقاومة هذه الضلالة، فدرس التفسير بعد أن انقطعت دراسته بفاس عدة سنين".

وكان بداية تفسيره القرآن من تفسير النسفي. فأحيا بذلك لدى طلبة العلم علاقة جديدة بالقرآن وبمعانيه، وارتفع الوعي الفكري ليخرج من إسار الجزئيات إلى فضاء الأصول والكليات. وأرجع لقراءة القرآن وظيفتها الأساس التي هي التدبر والتذكر.

- **رابعا – ختاما**

يعتبر أبو شعيب الدكالي بحق مجددا من مجددي الأمة، أسهم بمجهوداته الإصلاحية في نهضة المغرب الحديث.

لم يترك كتبا ومؤلفات لكنه ترك علما غزيرا، ترك روحا، والروح أغلى من الكتب. ترك روحا إصلاحية وثابة في المجتمع، ولذلك كان عبد الله كنون يقول:"ألسنا كلنا كتبا وآثارا لفقيدنا العظيم، فكل ما نخطه بأيدينا ونرقمه في صفائحنا إنما هو نفحة من نفحات أشياخنا" رحمة الله عليهم جميعا غفر الله لنا ولهم، وألحقنا بهم في الصالحين.

والسلام عليكم ورحمة الله